

الاختبار الإلهي في القرآن الكريم



يقول ﷻ سبحانه وتعالى في محكم كتابه: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْدَأَ الْوَحْيَ لَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) (هود / 7).

تمهيد:

عندما خلق ﷻ تعالى الإنسان، قضت المشيئة الإلهية أن تكون له حياتان، حياة الدنيا، وحياة الآخرة. ففيما يتعلق بالحياة الآخرة، شاء ﷻ سبحانه وتعالى أن تكون هي الحياة الحقيقية، لذلك أعطاه صفة الخلود، فهي حياة أبدية، لا موت فيها ولا زوال.

ولأنها الحياة الحقيقية، السرمديّة والواقعية، فإنّ كلّ الحقائق ستظهر فيها، (يَوْمَ تُبْدَى السَّرَائِرُ) (الطارق / 9)، (لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمْ فَبَصَرُكُمُ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) (ق / 22).

دار الجزاء:

جعل ﷻ سبحانه وتعالى العنوان الرئيس للحياة الآخرة "دار الجزاء" بمعنى أن كلّ إنسان بدون أيّ استثناء سيقا في جزاء عمله في الحياة الآخرة، يقول تعالى: (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّاهُ نَفْسَهُ وَاللَّاهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)

وفي آية ثالثة قال ﷻ تعالى: (إِنَّ زَلْزَلَةً جَعَلْنَا مِمَّا عَالَمِي الْأَرْضِ زَيْدَةً لَّهَا) (الكهف/ 7)، لماذا؟ يقول ﷻ: (لِنَبِّئَلُوهُمْ أَيْبُهُمْ أَوْ حَسَنُ عَمَلِهِمْ) (الكهف/ 7). ويقول تعالى: (وَإِنَّ زَلْزَلَةً لَّجَاءِ لِيُونَمَّا عَالَمِيهَا صَعِيدًا جُرُزًا) (الكهف/ 8). بمعنى أن كل هذه الأرض فانية. وهنا ﷻ تعالى يبلونا ليرى أيُّنا أحسن عملاً، لأنَّه بعد هناك جزاء وحساب، لنكون أهلاً للثواب بجدارة، أو مستحقين للعقاب وليس لنا حجة على ﷻ عندما يُعاقبنا بذنوبنا أو بسوء أعمالنا.

البلاء بالخير والشر:

(لِنَبِّئَلُوهُمْ أَيْبُهُمْ أَوْ حَسَنُ عَمَلِهِمْ).

عنوان البلاء عام وهو بمعنى الاختبار والامتحان. وﷻ سبحانه وتعالى يختبر عباده بالنعم، والخير، وأيضاً يختبرهم بالمصائب والمحن أي "بالنعم والنقم" في التعبير القرآني الخير بلاء والشر بلاء. ولكن، نتيجة الفهم العرفي لكلمة "بلاء" يذهب الذهن مباشرة إلى المصائب، حيث إنَّها من نوع البلاء الظاهرة الذي لا ينكره أحد، أمَّا البلاء بالنعم والذي قد يكون أشدَّ مصيبة على الإنسان، بل قد يكون نعمة أكبر عليه فهو البلاء الخفي الذي قد يغترَّ فيه الإنسان فيظن أنَّه في موقع الرضا الإلهي والحال: (وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَغْنَوْا فِيهَا أَمْ لَمْ يَلْمِزْهُمْ أَمْ لَا لَأُولَئِكَ فِي آيَاتِنَا) (آل عمران/ 178).

ويقول سبحانه وتعالى: (وَأَمْ مَّا الْإِنْسَانُ إِذْ مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ ثُمَّ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ) (الفجر/ 15). فهنا مصداق الابتلاء الإلهي بالإكرام والإنعام، (وَأَمْ مَّا الْإِنْسَانُ إِذْ مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ) (الفجر/ 16)، "قَدَرَ" أي "ضيق" وهنا بتضييق العيش وحبس الأرزاق.

فالنعم والنقم وجهان للبلاء، وعلى الإنسان أن يعرف كيف يشكر النعم، وكيف يصبر على النقم. بل عليه أن يكون فطناً لحاله عارفاً لماله متأملاً في علاقته مع ربه، حذراً عند النعم شكوراً عند المصائب، فقد جاء عن الإمام علي (ع): "إذا رأيت ربك يوالي عليك البلاء فاشكره، وإذا رأيت يتابع عليك النعم فاحذره".

الاختبار الإلهي:

في الاختبار الإلهي هناك مجموعة أمور عامة لابد من الالتفات إليها:

أولاً: إنَّ هذا الاختبار والامتحان هو قانون إلهي شامل لكل الناس، كل إنسان بلغ سن التكليف، هو موضع اختبار وابتلاء، لأنَّ هذه إرادة ﷻ في الخلق، حتى أنبياء ﷻ تعرَّضوا للاختبارات والابتلاءات، بل كانوا أشدَّ الناس بلاءً، وقد ذكر عند أبي عبد الله الصادق (ع) البلاء وما يخصُّ ﷻ عزَّ وجلَّ به المؤمن، فقال: "سئل رسول ﷻ (ص) من أشدَّ الناس بلاءً في الدنيا فقال: النبيون ثمَّ الأمثل فالأمثل، ويبتلى المؤمن بعد على قدر إيمانه وحسن أعماله فمن صحَّ إيمانه وحسن عمله اشتدَّ بلاؤه، ومن سخط إيمانه وضعف عمله قلَّ بلاؤه". وقد ذكر ﷻ تعالى أصناف اختباراتهم في القرآن الكريم.

طبعاً، تختلف أهداف وأنواع الاختبار والابتلاء بين الناس من شخص لآخر، لكن في المبدأ الجميع مبتلى والجميع ممتحن.

ثانياً: الاختبار قد يأتي لفرد وقد يأتي لجماعة.

ثالثاً: □ تعالى، في أحيان كثيرة، يمتحن الإنسان في أكثر من شأن من شؤون الحياة. فقد يكون الاختبار الإلهي بالفقر، بالمرض، بالموت، وقد يكون بالصحة والغنى والمُلْك، وقد يشمل الامتحان في وقت واحد شأنين، أو ثلاثة، أو أربعة.

رابعاً: قد تختلف أنواع وحجم الابتلاءات بين شخص وآخر وذلك بحسب إمكانات وطاقات وطموحات وتطلّعات هذا الشخص، وقد تختلف من جماعة إلى جماعة، لذلك فالأنبياء (عليهم السلام) ابتلاءاتهم مختلفة، الأوصياء والأولياء والمؤمنون بلاءاتهم مختلفة، وهذا كلّهُ عن حكمة وتقدير أيضاً.

خامساً: من رحمة □ سبحانه وتعالى بعباده أنَّهُ عندما يختبرهم ويبتليهم بالذّم أو بالنقص، لا يكلّفهم بما لا يقدرّون عليه، أو لا يستطيعون تحمّله، فال□ تعالى يريد لعباده النجاح حيث إنّهم عباده، ولأنّ □ سبحانه وتعالى لم تقم مشيئته على نحو الإلزام التكويني، وضع لنا شرطاً، وهو أن يكون هذا النجاح بمشيئتنا واختيارنا، بإرادتنا، وجهدنا وعملنا.

سادساً: في الاختبار الإلهي، قد تتوفّر فرصة التصحيح وقد لا تتوفّر، فلو ابتلي الإنسان بذنوب كالغيبة مثلاً فإنّ بإمكانه تصحيح فشله في الاختبار بالتوبة والاستحلال ممّن اغتابه أمّا ذنب الشرك فإنّه لا يغفر: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ...) (النساء/ 48).

سابعاً: في الاختبار الإلهي أيضاً ولكرم □ وعطفه ورحمته علينا زوّدنا بكلّ عناصر النجاح وسخّر لنا كلّ الإمكانات: الأرض، الشمس، الكواكب، النجوم، الأنعام والحيوانات والبحار كلّها مسخرة للإنسان. أعطانا □ العقل الذي به نفكّر لنقوم بالعمل الواجب ونبتعد عن الحرام. كذلك، أعطانا القدرات الجسدية والنفسيّة التي تؤهّلنا للنجاح ومنحنا السمع والبصر، والأيدي والأرجل، يقول تعالى: (إِنَّمَا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِمْ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) (الإنسان/ 2)، ويكمل (إِنَّمَا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (الإنسان/ 3).

وإضافة إلى ذلك فقد أرسل □ تعالى لنا الأنبياء والرسل وأنزل الكتب وأقام الحجج والأولياء، فلا تخلو الأرض من حجّة □ على الخلائق، وبذا هدانا سواء السبيل. إذاً الهداية العامّة متحقّقة. أيضاً عرفّنا الأنبياء والأولياء إلى كيفية مواجهة البلاء وأعطونا في ذلك إرشادات تفصيليّة.

كيفية المواجهة:

لا بدّ من الالتفات أيضاً إلى أنّ الامتحان الإلهيّ يستلزم من الإنسان عدّة أمور لمواجهته:

أوّلها: الانتباه والحذر، فلا يغفل الإنسان عن حقيقة الدنيا.

ثانياً: أن يعمل الإنسان ويبدل بجدّ ما يستطيع للنجاح في الاختبار.

ثالثاً: أن يستفيد من الوقت، فيوم تأتي ساعة الموت يتمنّى الإنسان أن يعود إلى الدنيا ولو بمقدار قليل، ليعمل عملاً صالحاً ينتفع به أمام هول المطلّع وسوء العاقبة (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (المؤمنون/ 99-100). لذا يجب أن ننسب لقيمة الزمن وقيمة العمر كباراً وشباباً، ولا يقولنّ أحد إنّني ما زلت شاباً والعمر أمامي، فإنّ أغلب الذين يموتون هم من الشباب، يقول □ تعالى: (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ يَفُضَّي الْأُمُورُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (مريم/ 39).

كذلك يجب أن نضع هدفاً واضحاً ومحدّداً وهو أنّنا يجب أن ننجح ونفوز في الامتحان، لأنّ ذلك يعني الحصول على الحياة الحقيقيّة والنعيم، والسعادة الأبدية السرمديّة. ▶

المصدر: كتاب مواعظ³ شافية / سلسلة الدروس الثقافية (37)